# تقنيات التجديد الحضري للتراث العمراني
## - حالة وادي مزاب-

**المهندس/ جلول زناتي**
مهندس معماري - باحث
مخبر الجغرافيا والتهيئة الإقليمية- كلية علوم الأرض والجغرافيا والتهيئة الإقليمية
جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا - الجزائر
Email : zenatidjelloul@yahoo.fr

**ملخص:**

إن اعتبار التراث العمراني، بنسيجه وعلاقاته الوظيفية، عائقاً أمام التطور والتقدم، أدى إلى تطبيق سياسات تنظيمية خلّفت وراءها الكثير من المشاكل، والتي لازالت إلى الآن ماثلة للعيان، وتفرض وجودها بقوة أثناء التعاطي مع التراث العمراني، من حيث الخطط والاستراتيجيات اللازمة للمحافظة على إرثها الحضاري وتجديده. فسلسلة الإجراءات والتغيرات التي حدثت في المدينة، تم تطبيقها دون مراعاة الوضع الاجتماعي والثقافي المميز لها، وقادت إلى تغيرات بنيوية خطيرة في نسيجها العمراني وفراغاتها العضوية.

أمام هذا الوضع الاستثنائي، ظهرت الكثير من الدعوات التي تنادي بأهمية الحفاظ على التراث العمراني ككيان مادي ومعنوي في آن واحد، والكف عن النظر إليها كمناطق أثرية تاريخية فحسب، بل أيضاً باعتبارها فضاءات حضرية ومناطق نشاط وتبادل ثقافي واقتصادي.

**الكلمات المفتاحية:**

التجديد الحضري، التراث العمراني، النسيج العمراني، المعالم الأثرية، السمات الحضارية...

# TECHNIQUES OF URBAN RENEWAL FOR THE URBAN HERITAGE
## -The case of M’zab Valley
## -

**Eng. ZENATI Djelloul**
Architect, MSc in Urban & Territory Planning.
LGAT. FSTGAT
USTHB, Algiers
Email : zenatidjelloul@yahoo.fr

**Abstract :**

Considerations the architectural heritage, fabric and functional relations impediment to progress and development, has led to the application of regulatory policies that have led to many problems, which are still far are still visible,

and impose a strong presence during the dealing with architectural heritage, in terms of plans and strategies to preserve the cultural heritage and renewal. The series of actions and changes that have occurred in the city, has been applied without taking into account the social and cultural distinctive, and led to serious structural changes in the urban fabric and organic space.

Faced with this exceptional situation, there have been many calls to the importance of preserving the architectural heritage material and moral entity at the same time, and to refrain from considering them as areas of archaeological historical, but also as spaces of urban areas of activity and exchange of cultural and economic.

**Key words:**
Urban renewal, Urban Heritage, Urban fabric, Monuments, Urban features…

**الملخص:**

إن اعتبار التراث العمراني، بنسيجه وعلاقاته الوظيفية، عائقاً أمام التطور والتقدم، أدى إلى تطبيق سياسات تنظيمية خلّفت وراءها الكثير من المشاكل، والتي لازالت إلى الآن ماثلة للعيان، وتفرض وجودها بقوة أثناء التعاطي مع التراث العمراني، من حيث الخطط والاستراتيجيات اللازمة للمحافظة على إرثها الحضاري وتجديده. فسلسلة الإجراءات والتغيرات التي حدثت في المدينة، تم تطبيقها دون مراعاة الوضع الاجتماعي والثقافي المميز لها، وقادت إلى تغيرات بنيوية خطيرة في نسيجها العمراني وفراغاتها العضوية.

أمام هذا الوضع الاستثنائي، ظهرت الكثير من الدعوات التي تنادي بأهمية الحفاظ على التراث العمراني ككيان مادي ومعنوي في آن واحد، والكف عن النظر إليها كمناطق أثرية تاريخية فحسب، بل أيضاً باعتبارها فضاءات حضرية ومناطق نشاط وتبادل ثقافي واقتصادي.

**المقدمة:**

شهدت المدن العربية خلال القرون الماضية سلسلة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية والتقنية السريعة، والتي امتد تأثيرها لتطال المجتمع وبيئته العمرانية. ولم يكن التراث العمراني بمنأى عن هذه التطورات، بل يكاد يكون المتضرر الأكبر منها، الأمر الذي أوشك فيه أن يفقد هويته، جراء الدمار الكبير الذي لحق بشخصيته وسماته الحضارية ومعالمه التراثية.

إن اعتبار التراث العمراني، بنسيجه وعلاقاته الوظيفية، عائقاً أمام التطور والتقدم، أدى إلى تطبيق سياسات تنظيمية خلّفت وراءها الكثير من المشاكل، والتي لازالت إلى الآن ماثلة للعيان، وتفرض وجودها بقوة أثناء التعاطي مع التراث العمراني، من حيث الخطط

والاستراتيجيات اللازمة للمحافظة على إرثها الحضاري وتجديده. فسلسلة الإجراءات والتغيرات التي حدثت في المدينة، تم تطبيقها دون مراعاة الوضع الاجتماعي والثقافي المميز لها، وقادت إلى تغيرات بنيوية خطيرة في نسيجها العمراني وفراغاتها العضوية.

أمام هذا الوضع الاستثنائي، ظهرت الكثير من الدعوات التي تنادي بأهمية الحفاظ على التراث العمراني ككيان مادي ومعنوي في آن واحد، والكف عن النظر إليها كمناطق أثرية تاريخية فحسب، بل أيضاً باعتبارها فضاءات حضرية ومناطق نشاط وتبادل ثقافي واقتصادي.

**إشكالية البحث:**

تتركز إشكالية البحث حول الدور الذي تخصه تقنيات التجديد الحضري للحفاظ على التراث العمراني. وهي أزمة حقيقية من أهم عناصرها هو فقدان القيم الجمالية والإبداعية وإهمال النواحي التعبيرية والوظيفية، وذلك بعكس التراث والعمارة الإسلامية التي حققت التكامل بين الفضاءات و الأداء الوظيفي للمبنى من ناحية والأداء الجمالي والإبداعي من ناحية أخرى مع مراعاة التوافق مع البيئة المحيطة.

**أهداف البحث:**

يأتي التركيز المتزايد على إبراز ملامح وهوية العمارة الوطنية والمحلية في العالم كرد فعل عفوي على العمارة المتعددة الجنسيات والطراز العالمي للعمارة والحركة المعمارية الحديثة، وهو يساعد في الوقت نفسه على الوقوف بوجه الأنظمة التخطيطية والعمرانية الحديثة والأنماط السكنية المستوردة التي تحتاج إلى مفهوم واضح حول البيئة العمرانية وما يرتبط بها، فقد أغفلت هذه الأفكار والأنماط المعمارية أهمية الجوانب البيئية والاجتماعية وابتعدت عن التعبير المحلي والإنساني. يتناول بحثنا تقنيات التجديد الحضري للتراث العمراني بوادي مزاب، مستهدفا الآتي:

- استعراض وتحليل أسس التعامل مع التراث العمراني.
- توضح العلاقة بين سياسة الارتقاء وعناصر الهوية العمرانية.
- الخروج بالتوصيات الملائمة.

**الأسلوب:**

اعتمدنا في إنجاز البحث الجمع بين الأسلوبين النظري والتطبيقي والتكامل فيما بينهما، وقمنا باستخدام الجداول والأشكال والصور كوسائل إيضاح ملموسة. هذا الأسلوب المباشر لمعالجة المعطيات، من شأنه لفت نظر القارئ إلى التعرف على إشكالية الموضوع وأهدافه وكذلك التعرف على التوصيات التي نراها مناسبة.

**1- الأسس النظرية لسياسات التعامل مع التراث العمراني :**

بالرغم من المجال الواسع والمتنوع لسياسات التعامل مع التراث العمراني إلاّ أنه يمكن تأطيرها من خلال التعرف على مرتكزاتها الفكرية، والتي تتحدد في اتجاهات ثلاث: [حسن،أحمد يسري (1998)].

**1.1- الاتجاه الأول:**

ينظر إلى المدينة القديمة بنوع من الصنمية والتقديس، ويدعو للمحافظة على معالمها الأثرية باعتبارها شواهد على حضارة كانت، ويرفض أي تغيير أو تحديث ولو في أضيق الحدود.

**2.1- الاتجاه الثاني:**

يتبنى نزعة التطور والتقدم، ويرى أن المدينة القديمة هي جزء من المدينة المعاصرة ككل، وبالتالي لابدّ أن تطالها آثار هذا التطور، ولذلك يجب إفساح المجال أمام تطبيق المخططات التنظيمية عليها لدمجها في المجال العمراني والاجتماعي الحديث، حيث إنها جزء من الماضي لم يعد يؤدي دوره الوظيفي في ضوء التطورات الحالية، بل إنه أيضاً يُشكل حجر عثرة أمام التطورات الاقتصادية والاجتماعية .

**3.1- الاتجاه الثالث:**

ينظر إلى المدينة القديمة باعتبارها كياناً حياً، وإرثاً ثقافياً متميزاً يجب المحافظة عليه، إنما أيضاً عدم إغفال ضرورة تلاؤمه مع التطورات الحالية، الأمر الذي يستدعي التعامل مع هذا الكيان، بكافة أبعاده العمرانية والمعمارية والاقتصادية والاجتماعية، بكثير من الشفافية، باعتباره موجود موضوعياً، وهو العنصر المؤشر الأهم على التمايز الحضاري والثقافي بين الشعوب .

وعليه فلابدّ من تنمية مكوناته، والنظر إلى مشاكله بشمولية، ووضع الخطط والاستراتيجيات التي تكفل تطوره عبر مراعاة مجموعة العلاقات المتعددة والمكونات الحضارية المتنوعة، والتي يساهم في نهاية الأمر في إبرازه والمحافظة عليه نابضاً بالحياة .

وهنا لابدّ من التنويه إلى ارتباط الاتجاهات الثلاثة المذكورة، بتطور النظرة إلى التراث بشكل خاص وفكر التنمية بشكل عام، وقد جسدت مفاهيمها ومرتكزاتها النظرية في الواقع عبر سياسات يمكن حصرها بما يلي :

- سياسة الترميم، سياسة الحماية، سياسة الحفاظ وتعكس القيمة الرمزية والمعنوية للمدينة القديمة.
- سياسة الإزالة والإحلال، سياسة التجديد الحضري، سياسة إعادة البناء والتعمير، وتعكس هذه السياسات القيمة النفعية للمدينة القديمة.
- سياسة إعادة التأهيل والارتقاء، وتعكس القيمتين النفعية والمعنوية للمدينة القديمة.

تتعامل السياسة الأولى مع المدينة القديمة على أنها تراث ثقافي يُمثل عمراناً مرتبطاً بزمن محدد، بينما تتعامل الثانية معها على أنها جزء من نسيج المدينة الحديث وثقافتها المعاصرة، وتشتركان في أنهما تعكسان البعد الثابت للزمن، سواءً كان الماضي أو الحاضر، وأيضاً في النظر إلى المدينة القديمة على أنها كيان مادي فقط، فالأولى تجمدها وتحيلها متحفاً وشاهداً على أحداث مضت، والثانية تكتسحها بدعوى مجاراة التطور والتقدم .

أما السياسة الثالثة فتتعامل مع المدينة القديمة باعتبارها جزءاً من الماضي والحاضر والمستقبل، فهي بهذا

المعنى تعكس البعد المتغير للزمن، والمتمثل في النظر إليها كإرث ثقافي، إنما أيضاً لا تغفل أهمية العمل على تلاؤم مكوناتها مع المستجدات والتطورات الحالية [حسن،أحمد يسري (1998)].

## 2- أسس ومكونات سياسة الارتقاء :

إن الذي يعطي الحياة للتكوينات العمرانية ليس هو التشكيل المادي الهندسي فحسب، بقدر تلك الأحداث التي تدور حولها، ومن هذا المنطلق نحدد أن العمران حدث اجتماعي وحضاري، وتلبية لحدث إنساني سواءً كان حدثاً متكرراً أو حدثاً منفرداً [والي، طارق محمد (1985)].

فلا معنى للتراث إذا لم يتم استلهامه وتفهمه وتداوله، ولا معنى له أيضاً إذا لم يتم اكتشاف مكنوناته وطاقاته الكامنة وقدرته على التغير والتطور ومجاراة الحاضر . إن جوهر سياسة الارتقاء يعتمد على رصد التحولات والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية، وتقييم آثارها على المدينة القديمة، ووضع البرامج والخطط التي تضمن تنميتها مع المحافظة على تكويناتها العمرانية، والارتقاء بالجانب المعيشي والاقتصادي للسكان [والي، طارق محمد (1985)].

فسياسة الارتقاء لا يمكن أن تتم من خلال وصفة جاهزة، بل من خلال توفر قاعدة بيانات عريضة تشمل كافة النواحي والأمور سابقة الذكر نظراً لما توفره هذه البيانات من إضاءات وتعريف بالمشاكل، وكذلك مؤشرات وتوجهات عامة لحلها، إضافة إلى معلومات دقيقة حول الأشكال المعمارية والعمرانية الحالية، كذلك أيضاً توفر الإطار التشريعي القانوني والمؤسساتي الذي يضمن الضبط والتوجيه لعمليات الترميم والتحديث وإعادة البناء والتوظيف والاستحداث ... وغيرها من العمليات التي تتم في المدينة القديمة [قندقجي، ليلى(2001)] .

فالارتقاء بالبنية المادية للمدينة القديمة يعني المحافظة على النسيج العمراني ومكوناته، وفي مقدمتها الأبنية، وإصلاح وتجديد بنيتها وتطويرها لتلائم الاحتياجات الحالية.

أما الارتقاء بالبنية المعنوية، فيعني إعادة الاعتبار للتراث وتنميته كقيمة عليا، وتشجيع الانتماء الحضاري والوعي بأهمية المحافظة على التراث الثقافي للسكان.

وعلى الصعيد الاجتماعي، فالارتقاء يعني أولاً تهيئة الإقامة والاستقرار للسكان، وجعل مبانيهم متلائمة مع متطلباتهم واحتياجاتهم المتنامية، وما يفرضه هذا الأمر من تحسين للوسط المحيط . أما على الصعيد الاقتصادي، فيتمثل موضوع الارتقاء بمجموعة من الإجراءات المتعلقة بتحسين الأداء الاقتصادي للمدينة القديمة،عبر إيجاد مجالات استثمار جديدة، وإحياء بعض المهن، إضافة إلى توظيف بعض المباني بوظائف استثمارية جديدة،تراعي البيئة العمرانية والاجتماعية للمنطقة [قندقجي ،ليلى(2001)] .

إن الأهداف الكبيرة لسياسة الارتقاء، لابدّ لها أن تعتمد على مجموعة من الآليات والمكونات التي تتمتع بديناميكية كبيرة، والتي تساهم في ضمان تحقيقها لغاياتها المنشودة، وعلى هذه المكونات أن تستند إلى الواقع المشخص

إضافة إلى استقرائها المستقبل، وهو ما يؤمن استدامتها وفعاليتها.

إن أهم مكونات سياسة الارتقاء هي:

**1.2– التوثيق:**

وهو تقديم معلومات وبيانات وصفية للحالة الراهنة في المدينة القديمة (اجتماعي، اقتصادي، وظيفي)، كذلك حالة الأبنية والنسيج العمراني، إضافة إلى توثيق المباني والأوابد الأثرية.

**2.2– الإطار التشريعي والمؤسساتي:**

وهو مجموعة القوانين والإجراءات المتعلقة بضبط ومراقبة أعمال البناء المختلفة في المدينة القديمة، كذلك توفر المؤسسات الرسمية والشعبية والهيكلية الإدارية القادرة على رسم الخطط والتوجهات لتنمية المدينة القديمة .

**3.2– التمويل:**

والذي يهدف إلى إيجاد القاعدة والموارد الاقتصادية المتنوعة للقيام بتنفيذ الأهداف التخطيطية المقرة من قبل المؤسسات والإدارات المعنية.

**4.2– الاستدامة:**

والتي تعتمد على تطوير آليات لصيانة المباني التاريخية والمحافظة عليها، وتدريب الكوادر المهنية، وإيجاد مسارب جديدة للاستثمار، وتعميق الشعور بأهمية الانتماء الوطني والقومي عن طريق حماية وإبراز الشخصية والهوية المتميزة للمدينة القديمة [خطة إحياء البلدة القديمة-القدس-(1999)] .

إن سياسة الارتقاء يجب أن تتمتع بالمرونة الكافية، والتي تجعل بالإمكان مراجعة الخطط والبرامج وتعديلها في ضوء تطورات وظروف طارئة، كما أن برامجها وأهدافها يجب أن تصاغ على مراحل متكاملة في خدمة الهدف الاستراتيجي ألا وهو التنمية المستدامة للمدينة القديمة ككل.

**3- سياسة الارتقاء في مدينة غرداية:**

تقع ولاية غرداية وسط شمال الصحراء الجزائرية ، إلى الجنوب من العاصمة الجزائر بمسافة 600 كم ، وتتربع على مساحة كبيرة تقدر بـ 86105 كلم$^2$ وبعدد سكان يقارب 334754 نسمة، عرفت غرداية منذ العصر الحجري ، العديد من الحضارات ، حيث تشهد عليها الصناعات الحجرية ، النقوش الصخرية، والمعالم الجنائزية، كما عرفت خلال الفترة الإسلامية المبكرة تجمعات سكنية على شكل قصور احتفظ بعضها بالأطلال.

الشكل (1): موقع مدينة غرداية

المصدر: www.wikimedia.org

يتمثل البونتابول[1] (خماسي المدن) في إتحاد مجموعة من المدن القابعة بوادي ميزاب والتي أنشأت منذ حوالي أكثر من ألفية من الزمن، وتمتاز بعمران ومعمار فريد من نوعه ومتميز جذب كبار العمرانيين المعاصرين أمثال **لوكوربزييه (Le-Corbusier)**، فغرداية جوهرة ميزاب أسست سنة 1048م هذه العاصمة التجارية التي يقطنها بنو ميزاب قد احتضنت ماضيها (والمدينة التي لا تحتضن ماضيها لا مستقبل لها) كمدينة معبر للقوافل المتجهة نحو ساحل إفريقيا وبلدان المغرب، ويشكل طرازها المعماري لوحة مليئة بالنشاط والحيوية[عقاقبة ،أحمد(2010)].

يقع وادي مزاب على بعد 600 كلم جنوب العاصمة الجزائر،ضمن هضبة متوسط ارتفاعها يقدر بـ 600 م على خط الطول 3.45 ° و دائرة عرض 32.50 °، « يمتد على مسافة 20 كلم طولا وبمتوسط 2 كلم عرض بمساحة تقارب 40 كلم$^2$، وتعد استخدامات الأرض بوادي مزاب نتاج تضافر عدة عوامل طبيعية وبشرية أدت إلى اعتماد ثنائية الارتباط بين القصر والواحة. حيث تم توطين القصور الخمس فوق تلال صخرية كموضع دفاعي وبعيدة عن الفيضانات في شكل أنسجة حضرية متراصة ذات خصائص عمرانية ومعمارية مميزة، أما المساحات المنبسطة داخل الوادي فقد استخدمت للنشاط الزراعي وقسمت إلى خمسة واحات

1.البونتابول (pentapole) وهي كلمة فرنسية وتعني بالعربية خماسي المدن
أي لكل قصر واحته، هذا التزاوج بين الطبيعة والعمران شكـــل لوحات فنية ذات قيمة تراثية عالية وقيمة جمالية نادرة. [DIDILLON, Henriette et Jean-Marc. (1995)].

الشكل (2): التوسع العمراني على حساب الواحات

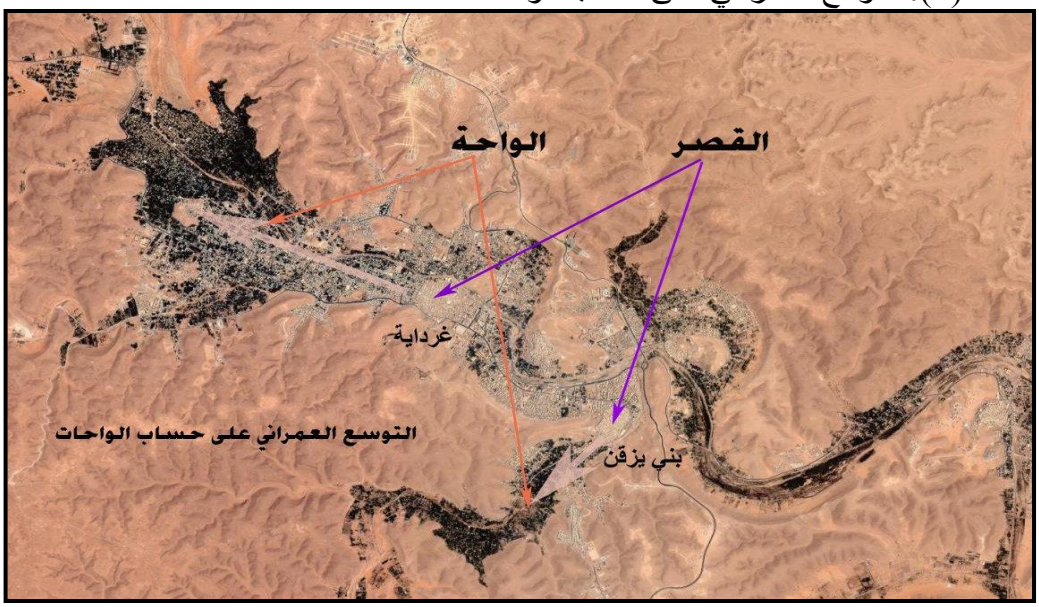


المصدر: الباحث، 2010

فالبونتابول لم يُمّس في جوهر عمرانه الأصيل إلا بعد دخول الاستعمار إلى المنطقة، أين عرف التعمير نموا نحو خارج أسوار القصور، ودليل ذلك أن غرداية حاليا تعادل 8 مرات المحيط المبني للقصور الخمسة التقليدية والتي عادة تكون متواضعة في قمم صخرية مشرفة بذلك على الوادي وبعيدا عن فيضاناته، وبعد دخول الاستعمار نزل السكان إلى أسفل الوادي تدريجيا واقتربوا من الواحات التي توفر لهم جوا منعشا. - حيث تتراوح درجة الحرارة بين 0 درجة مئوية إلى 46 درجة مئوية، وتقدر نسبة الرطوبة بـ 42% بين شهري أكتوبر و أبريل و بـ 4% بين شهري ماي وسبتمبر- . [المرصد الوطني للأرصاد الجوي (2010)]

الجدول (1): درجة الحرارة

| | | |
|---|---|---|
| متوسط درجة الحرارة | شهر يناير | شهر يوليو |
| | 10.1 درجة مئوية | 33.1 درجة مئوية |
| درجة الحرارة الدنيا | 0.2 درجة مئوية | |
| درجة الحرارة القصوى | 46 درجة مئوية | |

المصدر: المرصد الوطني للأرصاد الجوي، 2010

فنسق الامتداد الحضري في الوادي قد كان حتميا بفعل عدة عوامل منها خروج السكان الإباضيين من القصور نحو الأراضي القريبة، ووصل السكان ذوو المذهب المالكي، وكذلك تحول البدو الرحل إلى الحياة الحضرية. لقد سمحت التوسعات العمرانية بتعايش عمراني ومعماري بديع تم بشكل تدريجي للأقطاب الحضرية على طول امتداد 25 كلم، أما المرحلة الأخيرة من الامتداد الحضري

فكانت نتيجة حتمية لتشبع سافلة الوادي من خلال خـــروج العمـــران من الوادي إلى الهضاب المجاورة منـــذ سنوات التسعينيات وكان ذلك مترجما بعدة مشاريـــع : إنشاء المنطقة الصناعية فـــي جنوب المـــدينة (1975-1985)، إنجاز التحصيصات الخاصة كتحصيص تافيلالت جنوب قصر بني يزقن، و كذلك توطين جامعة غرداية في الجنوب الشرقي من وادي ميزاب. [عقاقبة ،أحمد(2010)].

ويمكن إيجاز الدوافع والأسباب المؤدية إلى التوسع التدريجي على الواحات في ما يلي:

- توسع العمران على الواحات هو حتمية نظرا لانعدام الموارد الطبيعية الضرورية للاستقرار خارج الوادي؛
- دخول المستعمر الفرنسي بغرض السيطرة على المجال من خلال القيام بتوطين أنسجة عمرانية تفصل بين القصور الخمسة؛
- الزيادة السكانية وارتفاع حجم الطلب علي السكن؛
- تجزئة الأراضي الفلاحية إلى قطع صغيرة نتيجة لتوارث العقار على امتداد ألفية من الزمن إضافة إلى قوة الارتباط بالمجال، مما دفع بالسكان إلى بناء مساكن للاستقرار داخل الوادي؛
- نمو النشاط السياحي والتجاري مما شجع الاستثمار والبناء بالقرب من القصور وعلى امتداد المحاور. [عقاقبة ،أحمد(2010)].

### 1.3-المواقع الأثرية والمعالم التاريخية:

أ/القصور : تتميز غرداية بالعديد من القصور العتيقة التي تبدو موحدة في شكلها متجانسة في ألوانها وهي كالتالي:

- قصر تغرداية (غرداية) سنة 1053 م
- قصر تاجنينت (العطف) تأسس سنة 1012 م
- قصر آت إزجن ( بني يزغن) سنة 1353 م
- قصر آت مليشت (مليكة) سنة 1355 م
- قصر آت بنور (بنورة) سنة 1046 م
- قصر القرارة سنة 1630 م
- قصر بريان سنة 1690م
- قصر متليلي القرن 14 م

الشكل (3): تغرداية (غرداية)*

الشكل (4): قصر تاجنينت (العطف)*

الشكل (5): آت إزجن ( بني يزغن)*

الشكل (6): آت مليشت (مليكة)*

الشكل (7): آت بنور (بنورة)*

كما تتميز الولاية بالعديد من المعالم الدينية من مساجد ، ومصليات جنائزية تقام فيها شعائر دينية موسمية، زيادة على تفرد المساكن التقليدية بهذه الولاية ، كما يتفرد القصر المزابي بتوفره على فضاءات واسعة للمبادلات التجارية والتي تعتبر مركزا للحياة الحضارية . تعرف قصور ولاية غرداية بنظام خاص لتوزيع المياه على الواحات الغناء ، التي يستفاد منها للاستجمام صيفا ، زيادة بالتمتع بثمارها.

## 2.3-عناصر الهوية العمرانية:

من خلال الدراسة التاريخية لنمو و تطور المدن بمنطقة واد ميزاب يمكننا استخراج عدة مباني ومعالم وكذا عناصر عديدة بإمكانها أن تشخص و تحدد الهوية العمرانية المميزة لمنطقة واد ميزاب و هذه العناصر هي: [بودي، إبراهيم (2006)].

- المدينة.
- المسجد
- المنازل
- السوق.
- الأبراج و المنشآت الدفاعية.
- النسيج العمراني للقصر.
- الواحة.

### 1.2.3- المسجد:

ة التراث المادي وغير المادي، 2010

يراعى في مساجد مْزاب البساطة و التقشف و الإبتعاد عن كل ما قد يشغل المصلي عن الخشوع في عبادته ، حتى المحراب فإنه خال من أي زخرفة ، حتى في المساجد المبنية حديثا ، وهذا التزاما بتعاليم الدين الإسلامي. و من أهم مميزات ، المئذنة ، التي يتخذها المزابيون عادة رمزا لهم نظرا لتميزها ، و قد اختارتها الشبكة المزابية رمزا كذلك. إن المئذنة المزابية من أهم ابداعات المهندس المزابي، وقد استطاع أن يصدر شكلها إلى عدة مناطق في الشمال الإفريقي ، حتى المناطق الشمالية للنيجر و مالي.

الشكل (8): تموضع المئذنة داخل القصر*

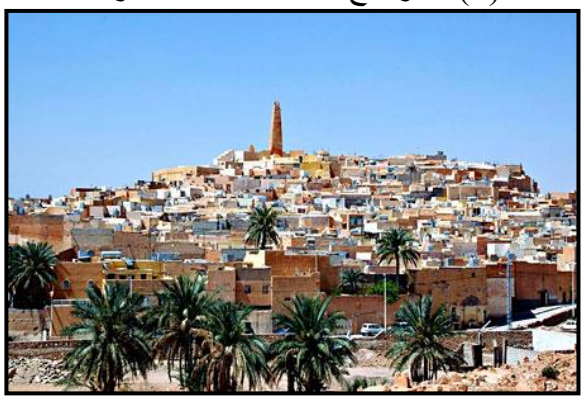

الشكل (9):مئذنة المسجد تعلو المنازل*

تنتصب المئذنة على شكل هرمي مقطوع ذي قاعدة مربعة ، على سبيل المثال فإن مئذنة تغردايت علوها 22مترا، عرض قاعدتها 6أمتار ، وعرض رأسها متران ، سمك جدرانها يتناقص من متر واحد إلى 30سم . بجانب المسجد تقع بيت الوضوء وقاعات تعليم للصبيان، و فوقه المخازن والسطح و مقر اجتماعات الذي يسمى تامنايت. تختلف مساحة وأهمية السطح من مدينة لأخرى، حيث يعتبر سطح مسجد تيغْرار من أوسعها ، مما أكسبه أهمية ووظائف أكثر ، حيث يستقبل جموع المصلين في الأيام الصيفية الحارة ، في صلوات الفجر و المغرب والعشاء. [بودي، إبراهيم (2006)].

### 2.2.3- المنازل:

الشكل (10):مقطع لمنزل مزابي

المنزل هو العنصر الثاني في العمارة المزابية، وهو العنصر الذي يظهر فيه خضوع المعمار المزابي بشكل كامل للتعاليم الإسلامية السّمحة ، سنوضح خصائص المسكن المزابي التقليدي بصفة عامة دون تفصيل المنازل المزابية التقليدية كثيرة التشابه، مساحتها لا تتجاوز 100 م$^2$ عادة ، تشتمل على طابقين وسطح ، و طابق تحت أرضي.

* المصدر: مشروع طرق القصور ولاية غرداية التراث المادي وغير المادي، 2010

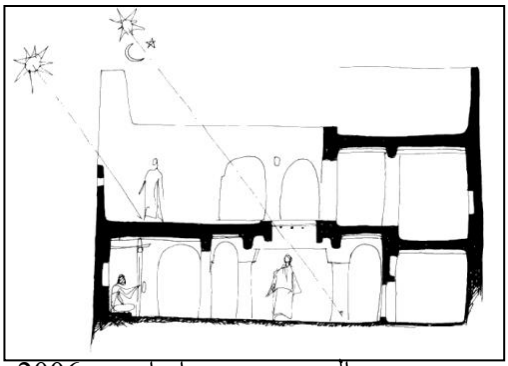

المصدر: بودي إبراهيم ، 2006

الشكل (11): مدخل المنزل

المصدر: بودي إبراهيم ، 2006

أول ما يُلاحظ عند مدخل المنزل هو العتبة ، و هي درجة صخرية متوضعة عند مدخل المنزل قبل الباب، يبلغ ارتفاعها حوالي عشرة سنتيمترات ، هذه العتبة تقي الدار من دخول الأتربة الرملية ، ومياه الأمطار، والحشرات الضارة وخروج الهواء البارد أيام الحر الشديد. يبقى باب المدخل عادة مفتوحا طول النهار ، إلا أن المار في الشارع لا يستطيع مع ذلك رؤية ما بداخل الدار ، نظرا لتصميم المدخل الذي هو عبارة عن رواق صغير ينتهي بحائط مقابل ، ليُكَوّن المدخل إلى وسط الدار منعرجا. عند تجاوز المدخل الثاني تجد نفسك في رواق يسمى سقيفة ، به مقعد حجري منخفض بنيَ للجلوس أمام المنسج صيفا ، ورحى تثبت في أحد زواياه لطحن الحبوب ، والجدير بالذكر أن المنزل المزابي لا يحتوي على أثاث عادة ، حيث يكون أثاث البيت مبنيا.

الشكل (12): وسط الدار

المصدر: بودي إبراهيم ، 2006

من هذا الرواق تنقل مباشرة إلى وسط الدار المضاء بواسطة فتحة (شبّاك) تصل الطابق الأرضي بالطابق الأول (السطحي) ، منها تنزل أشعة الشمس و يجدد الهواء، و تعتبر هذه الفتحة بديلا عن النوافذ، إذ أن المسكن المزابي يعتمد على الإضاءة العلوية ، و نادرا ما يحتوي على نوافذ، و إن وُجدت ففي الطابق السطحي، و تكون عبارة عن فتحة صغيرة في الحائط.

تُصَمّم فتحات التهوية و الإضاءة بطريقة تجعل الساكن يستفيد لأطول وقت ممكن من أشعة الشمس، خاصة شتاءًا. تعتبر غرفة استقبال النساء "تيزفْري" أنسب موقع للجلوس حول وسط الدار، هذه القاعة التي لا تكاد تخلو منها دار مزابية ، هي عبارة عن غرفة لها مدخل عريض نوعا ما ، لكنه بدون باب ، متجه نحو القبلة أو نحو المغرب للاستفادة أكثر من الضوء الطبيعي. هذه القاعة لها دوران رئيسيان : أولهما إقامة المنسج الذي تصنع به الفرش والملابس الصوفية ، ثانيهما أنها غرفة الأكل و سمر العائلة و استقبال النساء. [بودي، إبراهيم (2006)].

الشكل (13): نموذج لمطبخ مزابي

المصدر: بودي إبراهيم ، 2006

المطبخ فضاء صغير مفتوح على أحد جوانب وسط الدار، و لا تكون له غرفة مخصصة عادة ، و يتكون من موقد حجري متصل بفتحة تهوية إلى

السطح، و تعلوه رفوف و أوتاد و بعض الكوات التي تستعمل لوضع لوازم و أواني الطبخ . و يكون المطبخ ضمن وسط الدار بحيث لا تحـس
الجالسة أمام الموقد أنها في معزل عن باقي نساء الدار. في إحدى جوانب وسط الدار، يقع مدخل غرفة النوم الخاصة بربة البيت، وبجانبه تقع عادة طاولة مبنية تحتها أواني الماء العذب و ماء الغسل. بجانب مدخل وسط الدار ، نجد مطهرة ومرحاضا إلى جانبه مكان لربط المعزة التي تستر ما تبقى من فضلات الطعام ، و تجود بما تيسر من الحليب.

الشكل (14): الأدراج المؤدية إلى الطابق العلوي

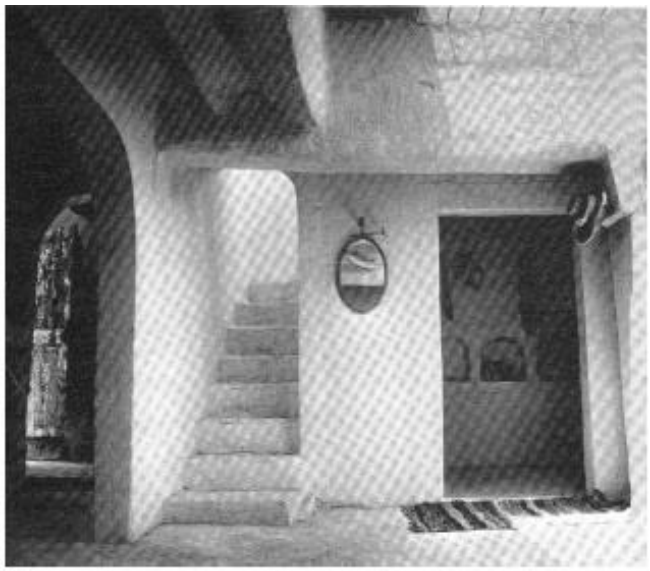

المصدر: بودي إبراهيم ، 2006

أما الطابق التحت أرضي المسمى بـ "الدّهليز" فالأدراج المؤدية إليه تكون من مدخل الدار، و هو مكان مكيّف طبيعيا، حيث يكون باردا صيفا، و دافئا شتاءا، ويستعمل كمكان للنوم عادة.
يستعمل المِزابيون في بنائهم الأقواس، و تحتوي الأقواس غالبا على كوات صغيرة ، تفيد كحوامل أو رفوف لوضع الآلات المضرة للصبيان و غيرها. لا تزال معظم المنازل الواقعة خلف سور المدينة المِـزابية محتفظة بنفس الطراز القديم السابق ذكره إلى الآن، سوى بعض التعديلات البسيطة التي أدخلت عليها حديثا، كالبلاط ، والكهرباء و الغاز ، بينما تحتفظ البيوت الحديثة بأساسيات الطراز المعماري التقليدي إلى حد بعيد.

بعض القواعد التي تحترم عند بناء المنازل:
هناك قواعد عامة و موانع في الفن المعماري المزابي أصدرها مجلس عمي سعيد (قديما) يلتزم بها كافة السكان منها:

- أن علو الدار لا يفوق 15 ذراعا.
- لا يسمح بإقامة الجدار على حدود السطح من الناحية الشرقية أو الغربية له كي لا يحرم الجار من ضوء الشمس ضحى و عشية.
- لا يجوز إسناد الدرج إلى جدار الجار إلا بإذنه ، و كذا المستراح أو مربط الدابة إلا إذا سبق أحدهما الآخر ، فلا حق للجار الجديد أن يلزم جاره بتغيير الوضعية السابقة.
- لا يحدث أحد نافذة مهما كانت مساحتها إلا برخصة من الجيران ليحددوا له المكان الذي يمكن أن يحدث فيه هذه النافذة أو الكوة.
- في كل مدينة يعيَّن أمينان في عرف البناء، إليهما ترفع الشكايات فيما يتعلق بالبناء.

إن الوصف السابق ينطبق على الدار الكاملة التي مساحتها نحو 100 م$^2$ تقريبا. هناك عدد كبير من المنازل أقل اتساعا، و تسمى بنصف دار، مساحتها نحو 50 مترا مربعا. إن بني مْزاب لم يشيدوا منزلا في أي مدينة من مدنهم ، إلا و رئيس جماعة البلدة لا يمتاز عن سواه لا في ملبسه و لا في مأكله و لا في سكناه ، وإن اتسعت داره فلكثرة عياله، وهذا يدل ثانية على الروح الإسلامية التي أثرت على المزابيين في جميع جوانب حياتهم . [بودي، إبراهيم (2006)].

### 3.2.3- السوق:

الشكل (15): صورة توضيحية للسوق

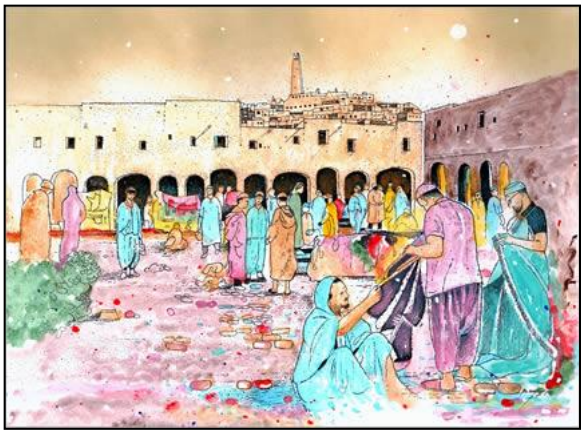

أما السوق ، فقد زادت مساحتها لتصبح ساحة واسعة ، بعد أن كانت شارعا في الأنسجة المبدئية للمدن المزابية ، كما تطورت وظيفتها الإجتماعية ، إذ كانت أول الأمر مكانا لتبادل المنتجات بين أهل المدينة، بينهم و بين قوافل البدو التي تقصد التجمعات السكنية للتجارة ، ثم أصبحت بعد ذلك تؤدي وظيفة اجتماعية أساسية ، إذ هي المكان العمومي الوحيد بعد المسجد ، الذي يمكن لأهل البلدة أن يجتمعوا فيه، و يتبادلوا الأخبار ، و يتفقدوا أحوالهم يوميا، ويستريحوا من تعب العمل ، بالإضافة إلى ممارستهم البيع والشراء. تختلف أشكال مساحات الأسواق ، فإذا كانت سوق آت ايزجن غير منتظمة الشكل تحيط بها مقاعد مبنية، فإن سوق تغردايت مستطيلة تحيط بها 98 قوسا متفاوتة الأبعاد ، طولها 75 مترا ، وعرضها 44 مترا. [بودي، إبراهيم (2006)].

### 4.2.3- المنشاءات الدفاعية:

تعتبر ميزة خاصة و عنصر أساسي في إنشاء المدينة بحيث تعد الأبراج والأسوار المحيطة بالقصر منشآت دفاعية حربية لها طابع دفاعي عسكري و قد ظهرت هذه المنشآت لضرورة عمرانية أساسية وهي الأمن و الاستقرار و حماية المدينة من الاعتداءات الخارجية لكنها من جهة أخرى تعد رسما لحدود الفراغ القابل للتعمير. و تأخذ هذه الأبراج أشكالا هرمية أساسية ذات قاعدة مربعة الشكل و يتم الصعود داخلها بواسطة السلالم الذي من خلالها في الأعلى تتم المراقبة العسكرية. [بودي، إبراهيم (2006)].

### 5.2.3 - النسيج العمراني:

الشكل (16): صورة تبين النسيج العمراني لمدينة غرداية*

إن المدينة المزابية قد خضعت في تخطيطها إلى قواعد المدينة الإسلامية والشمال-إفريقية عموما، وأول ما يهتم به المِـزابيون، الموقع ، إذ كانوا يختارون لها موقعا مراعين في ذلك قدرة المدينة على الدفاع ضد المغيرين، و وقايتها من فيضانات الأودية ، و الحفاظ على الأراضي الزراعية ذات التربة الطيبة.

وإن أول ما يشد انتباه الملاحظ للمدن المزابية الحديثة (ابتداء من تجنينت وانتهاء بتيـڤرار)، توضّعها على روابٍ (هضبات)، وهذا لا ينطبق على المدن المزابية القديمة. ويرجع سبب ذلك للظروف الأمنية الصعبة التي عاشها المزابيون في ذلك الوقت، إذ كانت بلادهم تقع في منطقة جيرانها لا يُؤتمنون، إذ كانوا لا يعتمدون سوى على النهب و السلب في حياتهم ، وقد فصّل الشيخ علي يحيى معمر في هذا الموضوع في كتابه : الإباضية في موكب التاريخ. في أعلى تلك الربوة ، يتوضع المسجد ، و اختيار المِـزابيين هذا الموقع لإقامة المسجد لدليل على أهميته لهم ، إذ يشكل النواة المركزية و الروحية للقصر ، نظرا لوظائفه المتعددة ، فهو بجانب وظيفته الدينية ، يلعب دور قاعة الاجتماعات الهامة والمركز العلمي للمدينة و مخزن المؤن، و المركز الدفاعي للمدينة ، إذ نجده في المدن المزابية محصنا ويصعب الوصول إليه، ويعتبر مسجد آت بونور من أحصن المساجد المزابية.



* المصدر: مشروع طرق القصور ولاية غرداية التراث المادي وغير المادي، 2010

بجانب المسجد ، تتدرج المساكن متلاصقة متلاحمة لا يعلو واحد على آخر على امتداد الربوة ، حتى تنتهي بمجموعة أبراج دفاعية و سور مُحصّن يحيط بكامل المدينة. غالبا ما كان السور يتكون من ظهور منازل لا تفتح أبوابها إلا إلى الداخل ، أما في الامتدادات الأخيرة للمدن المزابية ، أصبح بعضها يتمتع بأسوار مستقلة عن المنازل ، بينها و بين هذه الأسوار شارع عريض ، و يكون السور عادة سميكا من الأسفل و يتناقص هذا السمك كلما علا السور .

ذلك هو الحال بالنسبة لآت ايزجن ، المدينة المِزابية الوحيدة التي لازالت تحافظ على سورها كاملا ، حيث يبلغ طوله : 2500 متر ، و ارتفاعه حوالي 3 أمتار، يختلف ارتفاع السور حسب موقعه ، حيث يكون مرتفعا في المنطقة المستوية أسفل الهضبة ، بينما يقل ارتفاعه في المناطق الشديدة الانحدار منها ، و يتخلل السور فتحات للرماية ضيقة من الخارج وواسعة من الداخل ، حتى يتسنى لأهل القصر النظر إلى الخارج ، بينما يصعب للغرباء التجسس إلى الداخل. أما الأزقة ، فهي عادة ذات ثلاثة أذرع عرضا، روعي في عرضها أقل ما يكفي لتلاقي دابتين ، و لتمرير جنازة، كما روعي في تخطيطها مقاومة الرياح والزوابع الرملية ، و التقليل من مدة إشعاع الشمس أيام الحر، و الاعتدال في انحدارها بحيث يمكن للسكان استعمال الدواب للتنقل و النقل.

كما نلاحظ تسقيف بعض الطرقات ، وهذا لأهداف دفاعية ، منها أن العدو الراكب، إذا تمكن من دخول المدينة ، فإنه لا يستطيع الوصول إلى المسجد ، قلبها ومركز قيادتها ، و مستودع الذخيرة و المؤن، كما أن هذه التسقيفات ، تمكّن أهل المدينة من التنقل على السطوح من حي إلى حي ، دون اللجوء إلى الأزقة . و ربما كان الداعي لهذه التسقيفات كذلك ، الحصول على المزيد من الظل صيفا ، و الوقاية من الرياح و الزوابع الرملية . و هناك بعض الشوارع أكثر عرضا من غيرها، مزودة بمقاعد مبنية ، كانت قديما أسواقا للمدينة ، حيث أن المدن المزابية مرت بمجموعة من التوسعات على مدى تاريخها ، فرضها التزايد الديمغرافي للمدن ، و كان المزابيون في كل توسعة ينشئون سوقا و سورا و أبراجا جديدة للمدينة.

و من أول اهتمامات المنشئين للمدينة كذلك، حفر البئر العمومية، التي لا يمكن تصور الحياة بدونها، ثم تتلو هذه البئر آبار أخرى كلما امتد العمران. والجدير بالذكر أن عملية الحفر هذه ليست بسهلة، إذ تتم في الصخر ( في جميع المدن باستثناء تيڤرار) ، و على عمق قد يزيد على سبعين مترا، وبالوسائل التقليدية. [بودي، إبراهيم (2006)].

### 6.2.3 - الواحة:

لكل مدينة من مدن مْزاب واحة متفاوتة الاتساع، تحوي داخلها على مجموعة من السدود و الآبار و منشآت الري ، و المساكن التي تسمى : تَـزْرِيـــبْـتْ – بالمزابية – . هذه المساكن تأوي إليها العائلات لقضاء فصل الصيف الحار ، للتمتع بلطافة الجو ، و لتجنيب رب الأسرة الرجوع إلى أهله بعد تعب اليوم معرضا نفسه الى لفحات الشمس الوقادة . ولا يعني هذا أن المرأة المزابية

تقضي فصلا كاملا في الراحة تحت ظلال النخيل و الكروم ، بل إنك لتجد في مقدمة الأثاث الذي يُرحّل إلى الواحة ، إلى جانب الضروريات من الفرش و الأواني ، منسجا أو منسجين مع طاقم آلات الغزل.

لذلك فإن الهندسة المعمارية لمسكن الواحة لا تختلف كثيرا عنها في منزل اقصر ، فهناك تشابه كبير بين طابقيهما الأرضيين ، أما بالنسبة للطابق الأول فمعظمه سطح لعامة الأسرة تقضي فيه الليل في الهواء الطلق ، يحيط به جناح مسقف و غرفة أو غرفتان ، لكل منهما أدرج خاصة تؤدي إلى سطح صغير يعلو الغرفة ، يأوي إليه الزوجان. [RAVEREAU, André (2003)].

الجدول رقم (2): جدول توضيحي لمقارنة بين منزل القصر ومنزل الواحة

| أوجه التشابه | أوجه الاختلاف |
|---|---|
| تستعمل نفس مواد البناء | م1 يقع في القصر<br>م2 يقع في الواحة |
| يحتويان على نفس المخطط الوظيفي | مساحة م2 أكبر من مساحة م1 |
| يحتويان على نفس عدد الطوابق ونفس الارتفاع. | عدد أفراد العائلة في المنزل م2 أكبر منه في المنزل م1 |

م1: منزل القصر
م2: منزل الواحة

المصدر: الباحث، 2010

**مواد البناء:**

المزابيون يعتمدون في بنائهم على المواد المحلية المتوفرة و يكتفون بها ، و لا يستعملون مواد غير معروفة أو مستوردة.

- الحجارة المقتلعة من طبقات الصخور الكلسية البيضاء.
- نوع من الجبس يسمى " تِمْشَمْتْ " يستخرج من الهضبة الكلسية على عمق متر واحد تقريبا، و يعالج في أفران لمدة 24 ساعة.
- الجير الذي يعالج في أفران معدل ارتفاعها متران ، يستهلك من الحطب 5 أضعاف ما تحتاجه التمشمت.
- الرمل غير الصلصالي ، يستخرج من مجاري الأودية.
- النخلة ، و يستعمل منها للبناء جذعها و جريدها و سعفها.

**خاتمة:**

تشكل مدينة غرداية إرثاً تاريخياً وعمرانياً واجتماعياً ونظراً لتميزها من حيث الحجم والموقع وتعدد المنشآت وباعتبارها أحد المعالم القديمة في تأسيسها، الحديثة بوظائفها. بالإضافة إلى كونها امتداداً عمرانياً في موقعه الحضري ومتكاملاً مع الأبنية الأثرية والتراثية الأخرى .

بعد استعراض هذه الملامح العمرانية والمعمارية، ينبغي أن ننطلق من هذه الملامح لتحقيق توسعات عمرانية يتم فيها التكامل بين الحفاظ على التراث العمراني من جهة ومتطلبات الاقتصاد الحضري في المجالات والطاقة، كما نضمن استدامة التراث العمراني مع إدخال التكنولوجيا والتقنية.

**التوصيات :**

إن الأساس الذي يرتكز عليه التجديد الحضري هو وجود قاعدة بيانات ومعلومات موثقة حول الوضع الحالي للتراث العمراني بكافة مجالاته، الأمر الذي يمكن من خلاله إيجاد الحلول لمشاكله والعمل على تنميته وتجديده.

ويوصى البحث بالآتي :

- إن تأهيل التراث العمراني يجب أن يكون عن طريق دراسة موضوعية حتى لا يفقد قيمته الأصلية وخصائصه العمرانية.
- ضرورة وجود هيئات وإدارات خاصة تعنى بالتراث العمراني ترصد التحولات الطارئة فيه، وتضع الخطط والبرامج التي تكفل التكيف مع المتغيرات الحضرية، أي أن تتمتع هذه البرامج بإمكانية التغيير والتحديث المستمر .
- العمل على إيجاد وتوسيع القاعدة المادية لتمويل المشاريع المختلفة، وتشجيع القطاع الخاص على الاستثمار في مجال التراث العمراني لمشاريع سياحية.
- العمل على تطوير خطة خاصة بالسياحة، من حيث توفير الخدمات الضرورية لهم ضمن مناطق محددة، تطوير العمل في المناطق المختلفة، ليكون التغيير ملحوظاً من قبل السكان والمستثمرين.
- العمل بالأطر التشريعية والقانونية في مجال التراث.
- تطوير المشاركة والمبادرة السكانية، **وإعطائها الأولوية في خطط التطوير والتنمية.**

**المراجع:**

(1) . حسن، أحمد يسري (1998) " إطار نظري مقترح لسياسات التعامل مع المناطق التاريخية"، ندوة مراكز المدن العربية: إعادة التأهيل عمرانياً، حضرياً، اجتماعياً. حلب- سوريا.

(2) والي، طارق محمد (1985)" إحياء التراث العمراني للمدينة الإسلامية"، ندوة الحفاظ على التراث المعماري الإسلامي. اسطنبول- تركيا.

(3) قندقجي، ليلى(2001) "المعايير التصميمية للتدخل في المباني التاريخية في المدينة القديمة" رسالة ماجستير في التصميم المعماري- كلية الهندسة المعمارية، جامعة حلب- سوريا.

(4) عقاقبة ،أحمد (2010) "التعمير في وادي مزاب:بين حتمية التوسع وأولوية الحفاظ على الموروث العمراني"، مؤتمر التقنية والاستدامة في العمران، كلية العمارة والتخطيط - جامعة الملك سعود. الرياض.

(5) خطة إحياء البلدة القديمة (القدس)- ملخص التقرير المرحلي- إعداد المكتب الفني وطاقم التخطيط في مؤسسة التعاون- القدس 1999.

(6) بودي، إبراهيم (2006) " قصور غرداية: نموذج معماري وعمراني "، رسالة تخرج - كلية الهندسة المعمارية، جامعة سعد دحلب. البليدة - الجزائر.

[7] DIDILLON, Henriette et Jean-Marc. (1995), « Habiter Le désert Les maisons mozabites », Editions Mardaga, Bruxelles

[8] RAVEREAU, André (2003), « Le M'Zab, une leçon d'architecture», Editions Actes Sud, France

[9] Ministère de la culture, Le Secteur Sauvegardé de la Vallée du M'ZAB, Office de
Protection et de Promotion de la Vallée du M'zab (OPVM),